

The question of Arabic identity between cultural diversity and multilingualism -Maghreb popular proverbs as a model-

Author^{1*}: Bouirane Ouarda

¹University 8 May 1945 guelma – Algeria (Department of Literature and Arabic Language)

*Affiliation email: bouirane.ouarda@univ-guelma.dz

ORCID iD Link (<https://orcid.org/0000-0002-6703-6572>)

ABSTRACT:

In our study, we seek to explain the role that Maghreb popular proverbs play in building the culture of Maghreb society and establishing their shared genetic genes; as well as its impacts in the establishment of social networking and community cohesion in the context of historical interdependence and geographical proximity, in addition to the sociocultural blending of Maghreb peoples, despite their different dialects and linguistic uses. In the light of Maghreb popular proverbs' models, in social, cultural and intellectual contexts, our research paper aims to answer the following questions:

-What are the limits of cultural interaction and social attraction among the peoples of the Arab nation from the point of view of Arab popular proverbs? Why is bilinguals and identity a fertile substance in this communicative patrimony heritage?

-How did their image come in the light of the societal and identity diversity? What impact has this had on the culture and identity of Maghreb society?

Keywords:

Identity; Language; proverb; Maghreb; popular; Multilingualism; Culture.

سؤال الهوية العربية بين التنوع الثقافي والتعدد اللغوي (الأمثال الشعبية المغاربية أنموذجاً)

ملخص: نسعى من وراء دراستنا إلى بيان الدور الذي تؤديه الأمثال الشعبية المغاربية في بناء ثقافة المجتمع المغاربي وإرساء جيناته الوراثية المشتركة. وأثره في إرساء دعائم التواصل الاجتماعي والتلاحم المجتمعي في ظل الترابط التاريخي والتقارب تنغيا ورقتنا البحثية تتغيا ورقتنا البحثية، على ضوء نماذج من الأمثال الشعبية المغاربية في سياقات اجتماعية وثقافية ودينية وفكرية، الإجابة عن التساؤلات الآتية:

- ما حدود التفاعل الثقافي والتجاذب الاجتماعي بين شعوب الأمة العربية من زاوية الأمثال الشعبية العربية؟ لماذا تشكل ثنائية اللغة والهوية مادة خصبة في هذا الإرث الشعبي التواصلية؟

- كيف تظهرت صورهما في ظل التعدد المجتمعي والهوياتي؟ وما أثر ذلك في ثقافة المجتمع المغاربي وبناء هويته؟

كلمات مفتاحية: هوية، اللغة، مثل، مغاربي، شعبي، التعدد اللغوي، ثقافة.

مقدمة:

يجد الإنسان نفسه دائماً الحاجة في ظل حيز اجتماعي ما إلى التواصل عن طريق اللغة، بوصفها - على حدّ تعبير أندري مارتيني A. Martinet - فعلاً اجتماعياً بامتياز، ولما كانت اللغة كذلك، بات من البديهي القول بأصالة العلاقة بين التعدد اللغوي والتمازج

الهويات في صلب المجمع الواحد المحتكم أساساً إلى الروابط الثقافية والتاريخية والحضارية للشعوب المعبرة عن كينونتها بعدد الأشكال اللغوية والأنماط التعبيرية؛ من مثل الحكايات والأمثال والحكم ذات الطابع الشعبي والاجتماعي في آن معاً، ولا شك أنّ من أهم أسباب تعدد تسميات الموروث الشفاهي الدارج بين: الأدب الشعبي والتراث الشعبي والفلكلور وغيرها، إنّما هو عائد إلى استخدام المصطلح عشوائياً بين بين الترادف أو التمييز واختلاف الرأي في إمكانية عدّه جنساً أدبياً خالصاً، وقد يؤول الأمر إلى حدّ الاختلاف في طبيعة مادته من حيث التحديد أو الشمول؛ فمجال دراسة الفولكلور كمادة في نظر بعضهم، ينحصر في تلك الأشكال الشعبية الشفوية اللامادية، بينما يرى آخرون أنّه مجال يتّسع البحث فيه ليطال مختلف الأشكال المادية الأخرى التي أبدعتها الشعوب، فالفلكلور "اصطلاح علمي مشتق عن الإنجليزية، أدخله العلامة وليم جون تومس (w.g.thoms) لأول مرة على المصطلحات العلمية سنة 1846م، والترجمة الحرفية للكلمة تعني حكمة الشعب أو المعرفة الشعبية" (سوكولوف، 2000).

يمثل الموروث الشعبي مظهراً بارزاً للتواصل اللغوي والتفاعل الاجتماعي في إطار التعدد المجتمعي والاختلاف اللهجي، ولا سيما في المجتمعات العربية عموماً والمغاربية بشكل أخص، فالأمثال الشعبية - بوصفها إراثاً شفويّاً قبل التدوين - من أمثـن خيوط التواصل الاجتماعي والتفاعل الثقافي بين الشعوب العربية، ولا سيما ما تعلّق منها بالقيم والأخلاق وعلاقات الأفراد؛ بعدّها ميزان المجتمع يزن به الأمور ويكشف ملامح ثقافته المشتركة والمنصهرة على طول حدود مغربنا العربي الكبير.

وقد اخترنا المثل الشعبي مجالاً لبحثنا إيماناً مناّ بقابلية هذا الإرث المجتمعي لمكاشفة واقع الفرد المغاربي وثقافته في إطار منظوماتنا التواصلية، فهو خطاب تواصلية يتمتع بطاقة تعبيرية هائلة وزخم إيجائي يختصر الموقف التواصلية في كلمات معدودات، كما يتّصف بخواص حجاجية مائزة، وكلّ ذلك إنّما يتأتى من ارتكازه على ما يُصطلح عليه بـ "الاقتصاد اللغوي Linguistic economy"، وتُسمّى المثل كذلك "لأنّه مائل لخاطر الإنسان أبداً، يتأسّى به، ويعظ ويأمر ويزجر (...)"، وقال قوم: إنّما معنى المثل المثل الذي يُحذى عليه، كأنّه جعله مقياساً لغيره (...). وقال بعضهم في المثل ثلاث خلال: إيجاز اللفظ، إصابة المعنى، وحسن التشبيه. " (ابن رشيق، 1981، ص280).

فهو بذلك تعبير على الرغم من بساطة تركيبه وعامية لغته إلّا أنّه لا يقلّ تدليلاً عن أرقى الخطابات فصاحة وبياناً؛ من قبيل الحكم المأثورة، والأمثال العربية الفصيحة، والأشعار الحكمية وما يجري مجراها، فالأمثال من الكلام موقع الإسماع، والتأثير في القلوب، فلا يكاد المرسل يبلغ مبلغها، ولا يؤثر تأثيرها، لأن المعاني بها لائحة، والشواهد بها واضحة، والنفوس بها وامقة، والقلوب بها واثقة، والعقول لها موافقة، فلذلك ضرب الله الأمثال في كتابه العزيز وجعلها من دلائل رسله، وأوضح بها الحجة على خلقه، لأنّها في العقول معقولة، وفي القلوب مقبولة" (الماوردي، 2013، ص460).

ولما كان الأمر كذلك رأينا أنّ هذا الجنس التعبيري والتواصلية بصبغته العامية لا يخرج في مقاماته المختلفة وأبعاده التاريخية والاجتماعية عن ثقافات مترسّخة فيه، وتكاد تنطق في كل مقال - على اختلاف مقاماته - بلسان أهله، فهو ذلك التراث الإنساني

الذي يختصر تجارب الأمم وخبرات الشعوب باختلاف عقائدهم وتنوع قيمهم ولغاتهم، لكونه نتاج أحداث وموارد تتناقلها الشفاه الشعبية فتحري على ألسنتهم حتى تصوير حكمة مجتمع ما ومراته حمالة الأوجه والمعاني، ف "لا يخفى على أحد ما للأمثال من شأن لمعرفة روح كل شعب على مرّ الأيام، فهي مرآة لهم تكشف عن آرائهم في أهمّ أمورهم: علاقتهم بالله، وعلاقتهم بالناس، للرجل منهم والمرأة، القريب والبعيد، الجار والغريب، الكبير والصغير، وهي تكشف أيضا عن نظرهم إلى العمل والبطالة والنشاط والكسل، وما يتصل بذلك من صدق أو كذب واستقامة وخبث، وغيرها من أخلاق حميدة أو ذميمة كالكرم والبخل والشجاعة والخيانة، وتُظهر الأمثال موقف أصحابها مما يعرض لهم من أحداث تسرّهم أو تحزنهم، وذوقهم في المأكل والمشرب والملبس وأسباب الطرب واللّهو." (الحديثي، 1980، ص 170). فهو بهذا المعنى إنما يؤدي أدواراً تفتح على التربية والتعليم والدعابة وإدخال البهجة في نفوس الناس لما يتحمّله من طاقات تعبيرية عن مختلف السياقات والمقامات.

من هذا الباب تُعتبر الأمثال الشعبية مدخلاً رئيساً لمزيد من الدراسة والبحث قصد مكالفة ثقافة أهله ومقومات هويته وسلوكه محموده ومذمومه، فضلاً عما تكتنزه من أبعاد ثقافية تعبّر عن قضايا على مستوى عال من الحساسية، من قبيل التعنيف والتسلط والطبقية والهيمنة، وغيرها من الأنساق الثقافية التي نبتغي مكاشفتها على ضوء نماذج من الأمثال الشعبية في قطرنا المغاربي.

1- الأمثال الشعبية بين التفاعل الثقافي والتجاذب الاجتماعي:

تتفاعل ثقافات الشعوب وتتجاذب قيمهم الاجتماعية في قطرنا العربي على شاكلة متناغمة تعكس تاريخنا الواحد على مرّ العصور والأزمنة، فالدين الإسلامي واللغة العربية بعدهما منبع الائتلاف والتلاحم يضللان الراية التي تجمعنا وتوحد كلمتنا على نمط لساني تحكمه قواعد لغة الضاد ونواميسها على اختلاف اللهجات العامية وتقاليدها التعبيرية، وكفى بما سنراه من التشاكل والتناغم بين أمثال شعوب القطر المغاربي وما تكتنزه من أبعاد ثقافية واجتماعية وهوياتية شاهداً وبيانا.

إن هذه الخصوصية الإثنوغرافية "تقتضي تفسيراً لها من خلال علم يُعرف بالإنثولوجيا، وهو مصطلح يتقارب من حيث موضوعه مع حقلين هما: السوسيولوجيا والأنثروبولوجيا" (شولي، 2005، ص 5)؛ فالإثنوغرافيا بعدها وصفا للممارسات الاجتماعية التي تحتكم إليها شعوب المغرب العربي، على ضوء تراثها اللاماديّ التليد، لتقف سداً منيعاً أمام محاولات التفرقة وبث الشقاق بين الأشقاء المغاربة، وتجدد الإشارة إلى أننا سنقتصر في بحثنا على التراث الشفوي المتلي على طول الخطّ المستقيم لدول الساحل العربي الإفريقي ممثلاً في ثلاثي المغرب العربي: تونس والجزائر والمغرب.

لا شك أن لهذه الروابط سرّاً أو سبباً أوعز لعالم الاجتماع الفرنسية "شولي كلودين *Chaulet Claudine*" إلى التنويه بأواصر القرى بين الشعوب المغاربية وتأكيداً على ضرورة القيام بمقاربات سوسيولوجية "تهدف إلى الفهم الدقيق والعمل متعدد الاختصاصات والاستماع للثقافة وهي تتشكل." (شولي، 2005، ص 7).

إنّهما بالفعل ثقافة في طور التشكل المستدام لأنّهما في كل حال وزمان تتلون بلون مغاير وجديد في ثوب التعدد اللغوي والتنوع اللّهجي، فمن البداهة أن يكتسي التراث المثلي وغيره من الأجناس التعبيرية الشفوية تلك الخواص التطورية؛ لأنّه يُبين في حقيقته عن خلفيات تاريخية خاصة أو مشتركة، كما يكشف عن خبرات فئة من المجتمع فُوضوا ليكونوا متكلمين بلسان أمتهم وشعبهم، إنّه "جنين تجربة وبداهة فرد، رسختها الشفاه الشعبية نتاجاً جماعياً، فأضحت حكمة الأجيال وصوت الشعوب" (جمانة طه، 2002، ص23)، ومن ثمّة تذوب ممارساتهم وتجاربهم في منظومة المجتمع ذاته، فالأمثال من منظور أنثروبولوجي لا تُعدّ من الظواهر الفردية أو الخاصة، بل هي تعبير ثقافي داخل الظاهرة الاجتماعية برمتها، (...)، ونتيجة لذلك تنبّه الوعي الثقافي والجمالي، لوجود « فرائد أدبية لدى الشعوب غير مستكنة في المظانّ المعرفّة والمعلّمة من أمهات الكتب وعيون الدواوين، بل ماثورة في النسيج المجتمعيّ العام وتضاعيف مكوناته المتنوعة" (سويسي، 2018، 36).

يمكننا أن ننظر إلى الموروث الشعبي باعتباره ينبوعاً تاريخياً ومدخلاً مهماً لمكاشفة الوعي الجماعي المنتج له، (بدءاً من تونس شرقاً، مروراً بالجزائر وسطاً، وصولاً إلى المغرب الأقصى غرباً)، وذلك عبر عديد الأمثال الشعبية التي تجري في هذا المجرى السوسيوثقافي، بوصفها نتاجاً شفاهياً يُعبّر عن أنساق ثقافية بعضها جميل ومشرق يعكس تحضّر أصحابها؛ من قبيل احترام الجار وتقريبه عن الدار من قولهم: "الجار قبل الدار"، والحثّ على فعل الخير ونبد العداوة في قولهم: "دير الخير وأنساه ودير الشرّ وتُفكّرو" (أمثال جزائرية)، أو من خلال الدعوة إلى التكافل ونبد الفرقة في قولهم: "الله لا يُردّ فاس على هراوة" (مثل مغربي)، أو الإخلاص لذوي القربى في قولهم "الكلب ما يعضّ خوّه"، وقولهم في التربية السليمة: "الله يرحّم من ولد ورّبي" (مثل مغربي)، وكذا التنويه بأهمية العمل ودوره في خدمة الفرد والمجتمع من قولهم: "أنا مير وأنت مير، أشكون يسوق هذ الحمير"، أو في عفة النفس وعزّها من قولهم: "خبز مغفّانة، ولا خبز منّانة"... وغيرها من الأمثال الشعبية ذات الطابع التعليمي والتربوي والترفيهي، والتي قد يعجز الخطاب الفصيح - على اختلاف فنونه - عن تأدية مؤدّاها على هذا المنوال من الاقتصاد اللغوي والتكثيف الدلالي.

وقد يعكس المثل وليد البيئة التي نشأ فيها عديد التصوّرات الدّهنية والتمثيلات الثقافية، وكذا السلوكات الاجتماعية المستهجنة في وقتنا الراهن؛ كظاهرة العنف بمختلف أشكاله وتمظهراته، وأبرزها ثلاثة هي: التهميش، والكراهية، وإلغاء الآخر، ويتمظهر ذلك في أوضاع منها: تعنيف المرأة وتكريس مركزية الرجل وما تجرّه هذه السلطة الذكورية من مظاهر تهميش للمرأة وتقزيم دورها أو إلغائه، من ذلك قولهم: "هم البنات للممات"، أو "زواج البنت سترة" و "موت المرا سترة" أو "قوم النسا بالنسا والبقر بالعصا" أو قولهم: "بُطّ النسا بالنسا ماشي بالعصا"؛ أي تزوج عليهنّ أخريات، وقولهم: "ضربوه فالسوق ردّ الغشّ على مرته" و "النسا كي ماء البحر كلهم مالح الذوق"، وقولهم "آمن لمرا الحيّة ولا تامن لمريّة" و قولهم: "أحذر عناد الرهبان، وكيد النسوان، وغضب السلطان" و "مسمار بالحيط ولا مرا بالبيت" شاوّر المرا ولا تاخذ برايهما " أو قول المثل التونسي: " اسمع كلام

مرتك وخالف رايها" و" يا اللّٰي مدّي المرا الهزيلة هي والزمان عليك، انت تطلّع وهي تجبد فيك" و" ألف عصا ولا غلب مرا".

هي في مجملها أمثال تدعو إلى الهيمنة الذكورية (المركز= المهيمن) على حساب النسق المغلوب (المراة= الهامش)، وهي حقيقة لا يمكن إنكارها في مجتمعاتنا المغاربية والعربية عموما، ولاسيما في أزمنة ماضية ليست ببعيدة، ولعلّ هذه النظرة الدونية للمراة تمثل حلقة وصل بين فهم قاصر لطبيعة المراة وخصوصياتها، وبين ذهنيات عفت مقاما في منظومتنا الاجتماعية متأثرة بجاهلية متوارثة أنتجت ممارسات وسلوكات أداها الترهيب والعنف والتقمّيز.

وكفى شاهدا على ذلك تشبيه المراة في مختلف سياقات التعبير بالزواحف المقيتة والحيات المُميتة، أو وصفها باليهودية، ففي ثقافات شعوب المغرب العربي يجري النسق ذاته من التعبير استلهاما ممّا يألّفونه من رمزيات وعادات وذهنيات ترتبط أساسا بطبيعة حياتهم، وما يحيط بهم من عوامل رمزية متأتية من معرفتهم ببيئتهم ومناخهم، إذ نجدهم يعبرون عن المراة برمزية تكشف عن تقييمهم الجمعي لها على أسّ المشابهة؛ فهي الحية والأفعى والخرباء واليهودية للدلالة على مكرها وخبثها وسعة حيلتها، ولا يختلف اثنان في أنّها ذهنية تشترك فيها شعوب المغرب العربي قاطبةً.

وقد تكشف الأمثال عن نسق مغلوب ثان، من خلال تعنيف اليتيم والفقير، على الرغم مكانتهما المحفوظة من المنظورين الإنساني والديني دليله قوله عزّ وجلّ في محكم تنزيله: ﴿ فَأَمَّا الْيَتِيمَ فَلَا تَقْهَرْ ، وَأَمَّا السَّائِلَ فَلَا تَنْهَرْ ﴾ [المصحف الشريف، الضحى، الآيتان: 9، 10] ، ومن تلك الأمثال نذكر: " ليتيم إذا اضربْتُوا أطْغِيه"، " اتعلّموا يا لعجّاما في رؤوس ليتامى" و"اللّٰي راحت أمّوا يحطّ حجرة في فُمو" و"لا توصي يتيّم على بكا"؛ أي لن يكون بحاجة إلى ذلك وليس لديه أمّ أو أب يبكي أمامهما لتحقيق غايته، وقد ينساق المثل إلى أبعد من هذا المعنى إلى الدلالة على أن اليتيم والبكاء صنوان مترفقان، وأنّ صوت اليتيم في الحياة بقاء.

من هنا تتضح معالم اليُتّم واليتيم على أنساق ذهنية لا إنسانية مؤلمة يندى لها الجبين من الترهيب والاستغلال والحرمان، وهو ما لا ينكره

عاقِل في عالمنا المعاصر، على أسوء صور العمالة والاستغلال بأشكاله.

وفي الفقير جاءت الأمثال قائلة: " اللّٰي ماعندوش فلوس كلامو مسّوس" و" قدّ ما عندك قدّ ما تسوّى"؛ أي كلامه غير لا ذوق له ولا معنى وغير مسموع، وهو موقف لا أقلّ من أن نصفه بالإقصائي، وأنّه موقف مشين لا يولي الإنسانية اعتبارا، و ما المطلوب منّا إلّا أنّ نُضيق رقعة هذه السلوكات ما استطعنا إليه سبيلا.

في هذا السياق السالب نلفي بعض الأمثال الشعبية تُفاخر بالتكتلات القبلية والمجتمعية وتدعو إليها، دونما معيار لإحقاق الحقّ بمراعاة المظلوم ومحاسبة الظالم، ولاشكّ أنّه سلوك قومي ضيق النظر تحوّل مع الوقت إلى قانون غاب يطغى فيه القوي على

الضعيف، ويقتل فيه الإنسان أخاه الإنسان، ولا أدلّ على ذلك من المثل القائل: "أنا وخويا على بن عمّي، وأنا وبن عمي على لبراني" و"الثّار يُمحي العار" أو المثل القائل: "حمار اللّي ما يخلف الثّار".

وعلى هذا المنوال نلّفني عديد الأمثال الدّاعية إلى العراك المتكافئ جسمانيا، دوغما الاحتكام إلى الفروق العمرية، الأمر الذي يُلغي أبرز الشيم والأخلاق الكريمة التي جُبلنا عليها، ويأتي احترام للكبير أو المسنّ في المقام الأوّل، بيد أنّ المثل القائل "إذا تعادلوا لكثاف أضرب لا تخاف" وغيره يخرق القاعدة ويُعرب الثقافة بل يشوّهها، كما هو الحال من خلال تكريس الأمثال للطبقية والإقطاعية وخرق قانون العدالة الاجتماعية، ومن ذلك قول المثل الشعبي الجزائري: "الرّيدة لزيدة والزّبل لعبيدة"؛ مع العلم أنّ الأولى سيدة ذات شرف ونسب ومقام والثانية خادمتها، ويضرب في مقام تطبيق شريعة الأقوياء على حساب الضعفاء؛ كقول المثل الشعبي المغربي "كُرْضة خبل جابها واذ، لا أصل لا مفصل" في مقابل "بنت القاع والباع وشماعة من ذراع" و"مجموعهما قولهم: "بنت العروق ماشي بنت الخروق" للدلالة على علو مكانة صاحبة الحسب والنسب مقارنة بالمرأة المتواضعة أهلا ونسبا. وكفى بالمثل التونسي القائل: "ناس فضة وناس نحاس، ناس ذهب وناس الماس: ناس كيف التاج فوق الرأس وناس تحت الساقين تنداس، ناس كيف الملايكة، وناس كيف الوسواس الخناس، ناس تتباس وناس تستاهل الضرب بالمهراس" شاهدا وبيانا.

ولئن عبّرت الأمثال الشعبية عن تلك المفارقات السالبة في مجتمعنا المغاربي، فهي ولا ريب تعبّر عن الجانب المشرق والمشرّف منها، ولا سيما فيما سُقناه من الأمثال، إذ تحضّ في الكثير منها على رعاية اليتيم واحترام الذات الأنثوية؛ زوجة كانت أو أختا أو أمّا، ولعلّ خير دليل على ذلك المثل القائل "الزبون ما تفهمو غير أمّوا؛ أي أنّ الأخرس لا يجد أذنا صاغية أو قلبا يحسّ به ويفهم معاناته سوى أمّه.

وتجدر الإشارة إلى أنّ بعض الأوضاع الطارئة على حياتنا المعاصرة جرّاء التطورات الحاصلة أخلاقيا وتربويا واجتماعيا قد أزاحت عديد الذهنيات الثقافية في الماضي القريب، فقد تغيّرت إثر ذلك النظرة إلى المتعلمين الكبار الذين اختاروا التعليم بعد بلوغهم من العمر عتيا، خلافا لما يقوله المثل: "بعد ما شاب هزوه للكتاب"؛ وهو مقالٌ يقال في مقام القيام بالشيء بعد فوات الأوان. إنّ مقارنة السلوك اللّساني الثقافي على ضوء الأمثال الشعبية من شأنه أن يضيء جوانب مظلمة عن الوعي الجماعي لشعوبنا المغاربية في تمثلاتها وعاداتها وقيمها المعبّر عنها بالعامية البسيطة بساطة حياتهم اليومية، وإنّما الأمر كذلك لأنّ "الأمثال الشعبية مجالٌ للانطلاق على السجية ومسرح لتفصيلات الحياة اليومية وما فيها من مفارقات وسخافات، ومتنفّس لرغبات الأفراد المكبوتة والظاهرة، ومرعى للإبداع الفني الذي يثير العجب والعُجاب." (عابدين، 1956، ص 118).

من البديهي جدا أن لا ننكر عوامل التطور التي تعترى الأمثال أثناء تداولها وانتقالها من بيئة إلى أخرى عبر تاريخ تشكّلها، وما يصحب ذلك من تغيير في بعض مبناه، سواءً بالطول أو القصر أو التغيير الذي لا يؤثر سلبا على أساسه الإيقاعي والدلالي، أمّا إذا

تجاوز حدود لغته الأم إلى لغة أخرى، فإنّه لا محالة يحفظ ماء معناه؛ لأنّ سرّ حياته في هجرته إنّما هو إحكام معناه، ودلالته المستخلصة من نبع هويته الخالصة لأهله؛ كونه وثيق الصلة بنبض حياتهم الشعبية حركةً وسكوناً، قوةً وضعفاً، فرحاً وأأساً... فهو قبل كل شيء صوت الشعب ونبضه (عيلان، 2013، ص 9).

2- الأمثال الشعبية وسؤال الهوية:

يطرح سؤال الهوية في كتابات محمد عابد الجابري أزواجاً وثنائيات، على رأسها: الإسلام- العروبة، والدين- الدولة، والأصالة- المعاصرة...، وفي إجابته عن الإشكالات المرتبطة بهذا السؤال، يقول: "العروبة- الإسلام، يمكن القول دون تردّد إنّنا لم نشعر يوماً نحن المغاربة- أي أبناء المغرب العربي- بأنّ هناك فرقاً بين الاثنين، أو بأنّ هذا الزوج يطرح مشكلاً من نوع الذي يطرح في صيغة الاختيار بين أحد الطرفين... أو من نوع المشكل الذي يطرح مسألة أيّهما يجب أن يكون أولاً، وأيّهما يجب أن يكون ثانياً" (الجابري، 1989، ص 103)، فالهوية من القضايا والموضوعات التي لاقت اهتماماً واسعاً من الأبحاث والدراسات على الصعيد السوسولوجي والثقافي والتاريخي والأدبي وحتى اللساني، ولا يزال الجدل يُفضي إلى عديد الخلافات والالتباسات فيما يتعلق بتحديد مفهومها واستخداماتها، ولعلّ أبرز استخدام وجدناه يندرج في إطارنا بحثنا هو المفهوم الذي يُوقَّع على معنى الهوية بأقلام ثلاثة ثوابت أساسية، هي: الإسلام، والعروبة والوطنية؛ من حيث لا يُعنى المفهوم بالهويات الجزئية والإثنية والقبلية والطائفية، والعرقية، بل يهتم بما هو مشترك بين أبناء المجتمع الواحد من باب الوطنية وما تحتويها من هويّات مرّت عبر التاريخ المغربي، والمنظومة المجتمعية ذات الصبغة القومية التي مكّنت لها العربية لساناً، ورَسَخها الإسلام ديناً وافداً من شبه الجزيرة العربية - مع الفتوحات الإسلامية- و من ثمّ أسهم العاملان في لمّ شتات شعوبها التي كانت فريسة التوغلات الحضارية والتاريخية الممتدة في عمق التاريخ القديم وما رافقته من حضارات واستعمارات طبعت المنطقة بطابع التنوع اللساني والتعدد اللهجي، ومن ثمّة منح الإسلام شعوب المنطقة هوية مشتركة قوامها الدين واللغة، فما موقع الأمثال الشعبية المغربية من تلك الهوية وما تأثيرها فيها؟

1.2. المثل الشعبي المغربي والهوية اللغوية:

نظر علماء العربية القدامى أمثال ابن جني والقيالي إلى اللهجة أو العامية - باصطلاحنا المعاصر - نظرة ازدراء بوصفها لغة رديئةً ركيكةً جنت على اللسان العربي وكانت سبب فساد بالّلحن واللّكنة وما يجري مجراها، واللّهجة (*Dialecte*) اليوم في تقدير المحدثين عادات كلامية لفئة وبيئة بعينها تكون صوتية، أو هي طريقة في الاستعمال اللغوي، تتميز بأبنيتها الصوتية والمفرداتية والتركيبية الخاصة ما يؤهلها لأن تكون محالاً خصباً للبحث - على مستوى تظاهراتها الشعبية والأدائية بعدّها لغة التواصل اليومي، ولا سيما في علاقتها الوطيدة بالفصحى ائتلافاً أو اختلافاً.

وإذّ نحن نَعْقِد العزم على دراسة الأمثال الشعبية المغربية في ضوء الهوية

اللغوية فإننا ندرك سلفاً أنّها مادة ثرة في ظلّ التعدد اللهجي والشراء اللغوي التي تزخر لهجات شعوب المغرب العربي، لأسباب يعود بعضها إلى تاريخ المنطقة قبل الفتح الإسلامي وما بعده، ويتصل بعضه الآخر بالاختلاط الحاصل بين سكان الجزائر الأصليين من البربر والأمازيغ بعديد الشعوب والثقافات التي وفدت المنطقة منذ فجر التاريخ، ولعلّ لذلك كلّ أثر فيما آلت إليها المنظومة المجتمعية، وكذا اللغوية من تغيرات صوتية ومعجمية تخطّ في حقيقتها مسار لغة وحياة مجتمع، ثمّ إنّ اختلاف الفئات الاجتماعية بحكم انتماءاتها العرقية والجغرافية والتاريخية لا محالة يُفضي إلى اختلاف لغوي، وقد تختلف المجموعة الواحدة في صلب اللغة الأم لأسباب أخرى مرجعها اللغة الثانية؛ أي اللهجة الدارجة على لسان العامة، وهي بدورها تتعدد وتتوالد نتيجة ذلك التغير الذي ما هو إلاّ طبيعة قارة في التواصل البشري، من حيث يتأتى الاختلاف في صلب الائتلاف، فعلى الرغم من تلك التغيرات الصوتية الناتجة عن الإبدال أو الإعلال أو التزيق والتفخيم، أو بالزيادة والحذف، أو الإدغام أو الإمالة وما يجري في مجراها، فإنّما هو تغير صوتي عائد إلى أصل ثابت قد تكون الفصحى مرجعها، وقد يعود الأمر إلى أصل أسبق بحكم تاريخ الجزائر وانتماءات أهلها.

1.1.2 المثل الشعبي بين الفصحى والعامي:

قد لا يختلف اثنان في أنّ أبرز أسباب عزوف الدارسين وعلماء الاجتماع عن البحث في التراث الشعبي بعدّه تعبيرا دارجاً على السنة العامة، إنّما هو عائد إلى مقابلته بالرمي الفصحى، ومن ثمّ تصنيفه في مرتبة أدنى وأقل، وكفى بالمثل الشعبي دليلاً على ذلك التهميش والازدراء والتفخيم، وقد نبّه الباحثون الغربيون مع بدايات القرن التاسع عشر إلى الانقسام الحاصل بين الثقافتين: الرسمية السائدة، والشعبية الدارجة (ثقافة الشعب أو معارف العامة وفنونهم وآدابهم)، وقد إلى سدّ هذا الشرح بين الثقافتين والاعتراف بهما علمياً على حدّ سواء، مؤكّدين على أنّ ما تحويه الثقافة الشعبية من منابع الإلهام وكنوز الفن والحكمة جدير بالالتفات إليه والاسترفاد منه (سوكولوف، 2000، ص13).

كما يرى جوزيف ريسان أنّه يمكن تعريف الفولكلور بالتجسيم الجماعي للعواطف الأساسية مثل الرهبة والخوف والبغض والاحترام والرغبة من قبل جزء من المجموعة الاجتماعية (كناعنة، 2011، ص117)، كما يرجع توجّسهم من العامية وصقّها بالخطر المهدد لكيثونة الفصحى ومكانته بين اللغات، والأنكى من ذلك هو الاعتراف المتأخّر للمؤسسات الرسمية والأكاديمية بقيمته بعد أن أتى على الكثير منه - ضياعاً أو إهمالاً - ولولا أنّه جاء بالدارج المتمكن في واقعنا العامي المعيش، لما استساغ لنا الحديث اليوم عن ذاكرة شعبية تحيا في ضميرنا الجمعي المغاربي، تسرد أدوار فاعلة عجز الفصحى عن أدائها؛ ولعلّ هذا الفهم الإقصائي هو ما مكّن له أثناء الثورات المجيدة من أن يُفقد من الرقابة الاستعمارية ويستحيل قناة تواصلية على قيمة عالية من الجهاد الفعلي، وتلك خصوصية تُحسب له على حساب كل ما كان يُكتب أو يُذاع فصيحاً.

ومع ذلك فالمثل الشعبي المغاربي لا ينسلخ عن الفصحى، بل إنّ السواد الأعظم منه متأثّر منها ومن غيرها، من حيث هو نتاج تعدد لهجي (الازواجية اللغوية) وتنوع لغوي (التداخل اللغوي والثنائية اللغوية)، ومن هنا يجدر بنا التنويه بضرورة الاعتراف

بخصوصية الموروث الشعبي وتمثلاته من حيث هو كيان تعبري له هويته اللغوية الخاصة ومنطقه الاجتماعي الخالص. فلو نظرنا - على سبيل التمثيل لا الحصر - إلى قولهم: "أنا نكمم وانت افهم" أو قولهم "الفهم من غمزه والبهيم من همزه"، أو في المثل القائل: الحديث قياس، والفاهم يفهم"، وكلها تعبيرات مثلية على تعدد أبنيتها الصوتية والتركيبية واللفظية، فإنها لا تخرج عن عباءة المثل الفصيح القائل "والليب بالإشارة يفهم" أو مع قول الشاعر:

حواجبنا تقضي الحوائج بيننا فنحن سكوتٌ والهوى يتكلمُ

وفي المثل القائل: "علمناهم الصلاة سبقونا للركعات" بغض النظر عن معناه الواضح، فهو يدكرنا بقول الشاعر:

عَلَّمْتُهُ نَظْمَ الْقَوَافِي فَلَمَّا نَظَمَ قَافِيَةً هَجَانِي

أو كالمثل المغربي القائل: "بَحَالُ الْكَلْبِ عَ الْعَظْمِ"، وهي صورة مثلية مجتلبة - على ما يبدو - من البيت الشعري الفصيح القائل:

أَمِنَ الْكَلَابَ طَلَبْتَ عَظْمًا لَقَدْ حَدَّثَتْ نَفْسَكَ بِالْمُحَالِ

وقول آخر:

ومن طلب الحوائج من لئيم كَمَنْ طَلَبَ الْعِظَامَ مِنَ الْكَلَابِ.

وهي مقامات وسياقات تشترك فيها الأمثال الفصيحة والشعبية على حد سواء، وتذهب جمانة طه في "موسوعة الروائع في الحكم والأمثال إلى" أن الأمثال التي قيلت بالفصحى وعاشت متداولة بها، هي محصول عهد قديم كانت فيه الفصحى لغة التخاطب اليومية، ولذلك فوجود بعض الأمثال لها نصوص بالفصحى وأخرى بلهجة أو لهجات عامية، إنما هو دليل على تواصلها مع الحياة وانتقالها من جيل إلى جيل (طه، 2002، 16). وإن عدنا إلى الرصيد الفصيح الذي تزخر به الأمثال الشعبية، فسيكون المقام ضيقا للبحث فيه لما له من الأهمية والجدية.

2.1.2 المثل الشعبي والتنوع اللّهي (الازدواجيات اللغوية رافدا):

يُقال إنّ التعدد اللغوي والتنوع اللّهي مظهران وبوّابتان لقراءة الهوية الثقافية والاجتماعية للشعوب، ولعلّ أبرز مظهرين يمكن الحديث عنهما اثنان هما: الازدواجية اللغوية، والثنائية اللغوية؛ ويراد بالأولى وجود شكلين مختلفين للغة الواحدة، يستخدم أحدهما في الوظائف الرسمية، وفي ضدها يوظف الآخر (الفلاي، 2009، 3)، بينما يُقصد بالثنائية اللغوية وجود نظامين لسانين متداخلين، فهي في الجزائر عوزع على مختلف التوزيعات الجغرافية لهذه اللهجات العامية، ممثلة في الأمازيغية والشّلحية والتّارقية، وحتى مخلفات الانتداب العثماني على شمال إفريقيا من ألفاظ تركية بنسبة أقلّ، إذ هي أقليّات لغوية تمتد على كامل القطر شرقاً ووسطاً وغرباً وصحراء، بعدّ الواحدة منها اللغة الأم قبل الإسلام وإحلال العربية محلّها. ولعلّ هذا الأمر يفسر حقيقة وجود رصيد مفرداتي كبير منها في أمثالنا الشعبية المغاربية، دليل ذلك الأمثال التي أوردها محمد بن شنب في مصّفه "أمثال الجزائر والمغرب العربي" في جزئه الثاني، إذ أورد أنّ المثل الجزائري القائل "مال المشحاح يكاله المرتاح" منقول عن المثل الأمازيغي القائل: "مال أمشحاح إنشض"

أومرتاح " (أميزان، 2018-2019، 37، 38)؛ أي مال الشحيح يموت ويتركه لغيره ينعمون به في راحة ورفاهية، وهو في باب التحذير من الشح والتقتير.

وفي المثلثين التونسيين " بوس الكلب من فمو حتى تقضي على حاجتك منو " و " الفم ييوس والقلب فيه السوس " استخدام اللفظة فارسية عُزيت في معنى باس؛ أي قبل قبل ولثم، والحال ذاته مع لفظة "لالا" الأمازيغية في قولهم: " بقات اللالا بلا طر"، ومعناها في الداريجة: سيدتي، كما تُستخدم في مواقف أخرى لوصف حماة الزوجة أو الأخت الكبيرة أو زوجة العم. وللفرنسية نصيب من التأثير في عاميتنا المثلثية في قولنا: " إذا عطاك العاطي ما تشقى ما تباطي؛ " بمعنى إذا قدر لك الله رزقا فليس عليك أن تشقى أو تعاني، وهي على ما يبدو لفظة منقولة عن الكلمة الفرنسية "battre"؛ بمعنى الكفاح. ولعل أبرز حدود التأثير بالفرنسية واليهودية الذي نجد صداه في استخدام أسماء لجماعات أو أشخاص للتعبير عن مقام ما بطريق التشبيه أو الكناية، ومن ذلك قول المثلثين المغربيين: " بحال لاليجو ياكل، ويقبض الماعون " و " اخنافو كيدابز مع ضيافو "، ف " لاليجو " يُقصد بها اللقيف الأجنبي من جنود فرنسيين مرتزقة لقمع الثوار المغاربة في عهد الحماية على المغرب، ويضرب المثل في مقام الحمجية وافتقاد أحدهم آداب الأكل والمائدة... وأما " اخنافو " فاسم شخص يهودي، يُضرب به المثل في اللؤم وكراهة الضيف (دادون، 2000، 37).

كما تنتهج الأمثال الشعبية عديد الأساليب البلاغية بالأمازيغية؛ كالكناية في المثل المغربي القائل: " وقات الحضرة بلا بُندير " و " وقات التفاية (طعام من اللحم) بلا فُرَيْر " وكلها كناية عن الشيء يُستغنى عنه لقلة تأثيره (دادون، 2000، 28).

3- الأمثال الشعبية والهوية الدينية (الإسلام):

تشكل المرجعية الدينية ركنا أصيلا ومؤثرا في تشكيل الهوية الثقافية والاجتماعية للمجتمعات المغاربية، ولاسيما على صعيد الموروث الشعبي المؤطر قناعات الأفراد وسلوكاتهم في تجاربهم وذهنياتهم، "وبما أن سلوك الإنسان ينطلق من فهمه لنفسه وللعالم المحيط به، فإن سلوكه يأخذ شكله وغطه من الأطر الإنسانية التي يتفاعل معها. هذه الأطر الإنسانية تبدأ بالعائلة ثم تتسع حتى تصل مستوى الإنسانية. والنمط الناتج عن مجموع علاقات الإنسان بهذه الأطر هي هويته" (كناعنة، 2011، 416)، ومن هنا تشكّل الهوية الدينية معينا خصبا يؤشر إلى تكثيف تعبيره عبر إعادة إنتاج للتجربة الذاتية والجماعية المحتكمة إلى تعاليم الدين المشتقة من نصه الصريح، ممثلا في القرآن والسنة الشريفة، ويفسر هذا عديد القضايا التي نراها تثبت مقاما في أمثالنا المغاربية، على اختلاف لهجاتنا الداريجة، وإنما ذلك لأننا عشنا ونحيا تاريخا مشتركا خطته هويتنا العربية والأمازيغية والتارقية... وأحكم وصله ديننا الإسلامي الحنيف، وكفى بما سنورده من الأمثال شاهدا على ذلك:

كثيرا ما تتردد في ثقافتنا المغاربية أمثال تحظّ على أمور دنيوية وازعها ديني بامتياز، ولذلك شكّلت منبع تكافل وتناغم بين لبنات المجتمعات الإسلامية والمغاربية على وجه الخصوص، من قبيل دعوتهم للعمل والمداومة عليه في أمثالهم، من مثل قولهم: "الناس الكل تجري ورا الحنزة " و " الله يجعل كل مضم زرع يخصد " و " إللي ضاع صبحو ضاع ربحو " و " الحركة بركة والبطالة هلكة " و " الرخ لا

لا "؛ أي (للتقاعس في العمل)" و " طاعة الوالدين من الدين"، ومنها أيضا قولهم: "المكتوب ما منّو هروب"؛ أي لا مفر من قضاء الله وقدره، و " اعمل يقينك فالله يعينك، و اعمل يقينك فالعبد يخونك" و " الدنيا ضراعة كل واحد يلبس ساعة"؛ أي هي مثل الجلباب، كل امرئ يلبسه وقتا معلوماً) في تمثل للآية الكريمة ﴿كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ..﴾ [آل عمران، الآية: 185].

خاتمة:

من الواضح من النماذج أن التراث المغربي من خلال الأمثال الشعبية يتماثل ويتكامل نصا ومعنى، في جزء كبير منها استنادها على الشرعية الدينية والتقاليد الاجتماعية، فهو بهذا المعنى يكشف التنوع الهوياتي في صلب التآلف والتكامل، من حيث هو شكل تعبري إما هو منوط بوظيفة أخلاقية تضبط السلوك وتراقبه، وإما أنه يأتي في ثوب إرشادي تربوي أو تعليمي بحكم مبناه الحكمي والقصصي لينقل خبرات الشعوب السالفة إلى الأجيال اللاحقة في أساليب تهكمية ساخرة حيناً، أو ترفيحية مسلية حيناً أخرى. كما يشكل المثل الشعبي دستوراً اجتماعياً يوازي دستور الدولة ويسير على نهجه قوةً وهيمنةً وسلطةً، فهو يحثّ ويزجر ويأمر. وما تعلق بالهوية فإنه يحضّ على القيم الاجتماعية والوطنية ويرسخ قواعد الهوية على اختلاف تشكلاتها اللغوية والدينية والوطنية كما رأينا.

تجدر الإشارة إلى أنّ الأمثال الشعبية نمط تعبري يبين عن نمط حياة، ويكشف عديد السلوكات والذهنيات والثقافات المستهجنة من عنف وقلة احترام للذات وللغير، وتكريس الظلم والاحتقار والطبقية التي تلغي العدالة الاجتماعية تحت طائلة شرعية القوة والهيمنة، ولا جرم أنّها سلوكات تغلغل في مجتمعنا كتغلغل السوس بين الأسنان، وما علينا - بحكم السيورة الثقافية والتطور التكنولوجي الحاصل - إلا أن نخضع تراثنا للغربة من أجل تأصيل روح الهوية وتكريس قواعدها في لبنات المجتمع المغربي.

المراجع:

- [1] دادون إدريس، (2000)، الأمثال الشعبية المغربية، مكتبة السلام الجديدة، الدار البيضاء، المغرب، ط1.
- [2] أمزيان سومية. (2019)، المستويات الجمالية للمثل الشعبي الجزائري- أمثال الجزائر والمغرب لمحمد أبي شنب أنموذجاً- أطروحة دكتوراه، قسم اللغة العربية وآدابها، جامعة أحمد بن بلة، وهران.
- [3] القيرواني ابن رشيق، (1981)، العمدة، تحقيق: محمد محي الدين عبد الحميد، ج1، دار الجيل، بيروت، لبنان، ط5.
- [4] الماوردي أبو الحسن علي بن محمد (2013)، أدب الدين والدنيا، دار المنهاج للنشر والتوزيع، نج: اللجنة العلمية للدار، بيروت، لبنان، ط1.
- [5] الحديثي طلال سالم، (1980)، الأمثال الشعبية الحلبية وأمثال ماردن، مجلة التراث الشعبي، دار الجاحظ للنشر، العدد الخامس، السنة الحادية عشر.
- [6] شولي كلودين، (2005) أنثروبولوجيا و/أو سوسيولوجيا؟ التفاتة إلى الخلف لدراسة ممارساتنا في هذين الحقلين، تر: مصطفى مجاهدي، مجلة إنسانيات، ع:27.
- [7] طه جمانه، (2002)، موسوعة الروائع في الحكم والأمثال، الدار الوطنية الجديدة، ط2.

- [8] سويسبي عبد الوهاب، (2018)، حجاجية الترغيب في العمل والتحضيض عليه- المثل الشعبي التونسي أنموذجا، مجلة تبين للدراسات الفكرية والثقافية، مجلد 7، ع 26
- [9] عابدين عبد المجيد، (1956)، الأمثال في النثر العربي القديم مع مقارنتها بنظائرها في الآداب السامية الأخرى، دار مصر للطباعة، القاهرة.
- [10] عيلان محمد، (2013)، معالم نخوية وأسلوبية، الأمثال الشعبية الجزائرية (مع ملحق ب: 300 مثل شعبي جزائري)، دار العوم للنشر والتوزيع، عنابة، الجزائر.
- [11] الجابري محمد عابد، (1989)، إشكاليات الفكر العربي المعاصر، مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت، لبنان.
- [12] شريف كناعنة، (2011)، دراسات في الثقافة والتراث والهوية، مواطن، المؤسسة الفلسطينية لدراسة الديمقراطية، رام الله، فلسطين.
- [13] الفلاي ابراهيم صالح، (2009)، ازدواجية اللغة النظرية والتطبيق، مكتبة الملك فهد، السعودية، ط 1.
- [14] يوري سوكولوف، (2000)، الفولكلور قضاياه وتاريخه، ترجمة: حلمي الشعراوي وعبد الحميد حواس، الهيئة العامة لقصور الثقافة، القاهرة، سلسلة الدراسات الشعبية (51)، ط 2.